دور الصحف البريطانية في تسجيل ثورة عرابي وطبيعة الرسوم الصحفية المنشورة في تلك الحقبة.

مقالة بصرية

*مي مصطفى كمال محمد عبد القادر
*مشرف على إدارة الجرافيك بصندوق التنمية الثقافية، بوزارة الثقافة
البريد الإليكتروني: maimost@aucegypt.edu

تاريخ المقال:

- **تاريخ تسليم البحث الكامل للمجلة:** 8 سبتمبر 2020
- **تاريخ تسليم النسخة المعدلة بعد التحكيم:** 20 أكتوبر 2020
- **تاريخ موافقة هيئة التحرير على النشر:** 4 نوفمبر 2020

الملخص:

احتجاجات أحمد عرابي باشا وزير الحربية ورجاله عام 1882 والتي أطلق عليها البعض "ثورة" أو "هوجة عرابي"، والتي بدت كشرارة البدء لإنجلترا والفرصة الذهبية لتنفيذ مخطط احتلال مصر، لا يمكن أن تكون منعزلة عن الصحافة العالمية والإنجليزية خاصة، فكان للنص والصورة أهمية متساوية بالنسبة لعملية رسم تصور حول "عرابي" صالحة للاستهلاك البريطاني، ففي عامي 1881 - 1882 تتضح الطريقة التصويرية السلبية لعرابي التي رسمت عبر الصحافة الانجليزية واستخدمها المشروع الاستعماري لأغراضه السياسية. هذه المقالة البصرية ترصد بالتحليل البصرى توالى الأحداث بداية من يوليو1882 وحتى استسلام أحمد عرابي باشا 13 سبتمبر 1882، ومآبين التاريخين السابق ذكرهما العديد من الأحداث التي رصدتها ووثقتها الرسوم التوضيحية والكاريكاتيرية التي نفذها كبار فناني الصحف الانجليزية الذين رافقوا الأساطيل الانجليزية إلى مصر، وسجلوا بريشتهم أحداث ذلك الصراع جنباً إلى جنب مع المراسلين الصحفيين وانتجوا أعمالا فنية عالية المستوى نفذت عن طريق الحفر الغائر من قوالب خشبية ومعدنية حيث كانت لندن موطناً لأكثر من 127 شركة للحفر على القوالب الخشبية بحلول عام 1872، مع احتلال المطبوعات الحجرية (الليثوجراف) المرتبة الثانية حتى حلول عام 1880.(1)، ومنها ما طبعت طباعة حجرية وتم تلوينها باليد.

الكلمات المفتاحية: عرابى باشا; الصحافة الإنجليزية; نهب الإسكندرية; الرسوم الصحفية

ويظهر في الشكل أحمد عرابي مع الخديوي توفيق ضمن قادة الحزب الوطني، فقد تمت مكافأته كضابط كفء بالجيش المصري بترقيته إلى رتبة عقيد، وتظهر في الشكل (1) سمات فنون العصر الفيكتوري السائدة في ذلك الوقت، حيث الأثاث الداخلي المذهب والستائر الفخمة والسجاد ذو النقوش الكثيرة

والمساحات الكبيرة، كما ظهر الثراء والرقي على أزياء ووقفة رجال الحكومة المصرية وقد التفوا بانتباه حول الخديوي توفيق الذي جلس في عظمة واضحة وأناقة، كذلك تفاصيل الأزياء الرسمية للسادة الوزراء (الباشوات) ومقتنياتهم من سيوف وأوشحة حريرية ونياشين وأزرار ذهبية ونقوش بخيوط قصبية على أكمام السترات تخبر بالكثير عن ثراء وتقدم الدولة المصرية في ذاك الوقت. طباعة من قالب خشبي محفور.

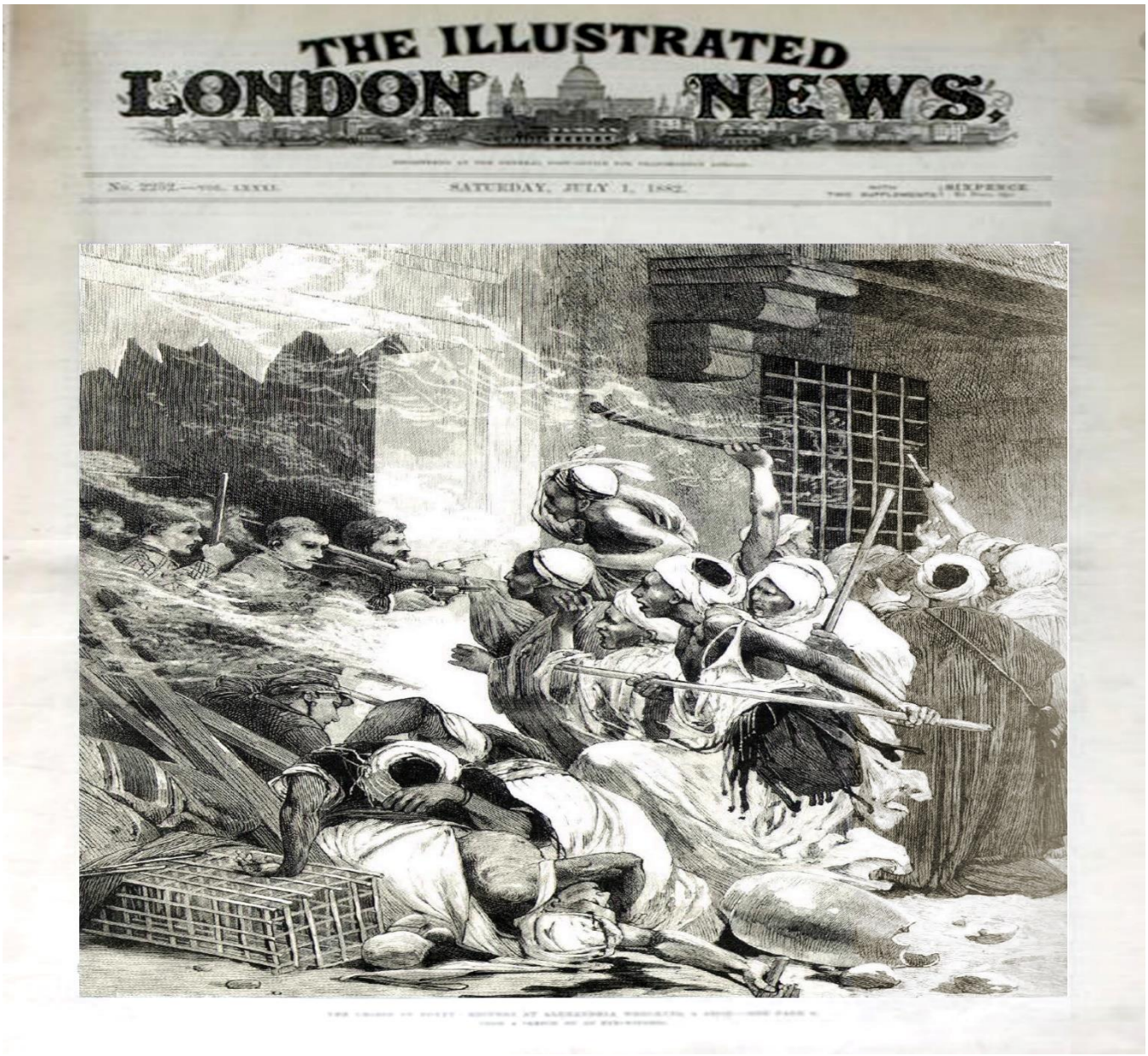
THE ILLUSTRATED
LONDON NEWS,
SATURDAY, JULY 1, 1882.

نجد العمل الفني يجسدأحداث الشغب بشكل درامي -كسمات الحقبة الڤيكتورية الفنية- مثيري الشغب والناهبين من الغوغاء السكندريين بملابسهم الرثة الممزقة وبوجوههم الغاضبة وأفواههم المفتوحة الدالة على الصياح والمفاجأة في ذات الوقت من مواجهة أفراد الجيش، ونجدهم ممسكين بهراوات استخدمت لتدمير واجهات المحال التجارية والممتلكات الأجنبية، وفي مقدمة المشهد نرى كتلة من أجساد متراصة فوق بعضها البعض هي لمصابين ملقون أرضاً ويبدو أنهم فاقدي الوعي جراء الاشتباكات، وفي أقصى اليسار نجد رجال الجيش بأسلحتهم يخرجون من خلال زجاج أحد المحال المكسور في المواجهة للسيطرة على الموقف وقد تناثرت بعض محتويات المتجر على الأرض في مشهد مفعم بالانفعال والحركة، توازنت فيه الإضاءة التي وزعت هرمياً على كتلة الناهبين في منتصف اللوحة، والظلال على الجوانب والخلفية داخل المتجر المظلم المخرب، وكتلة أخرى لغوغاء في اشتباك آخر في الخلفية. طباعة من قالب خشبي محفور مدموجة مع الكتابة الالكترونية التي كانت سائدة في ذاك الوقت ومستخدمة في جريدة "ذا إيلوستريتد لندن نيوز".

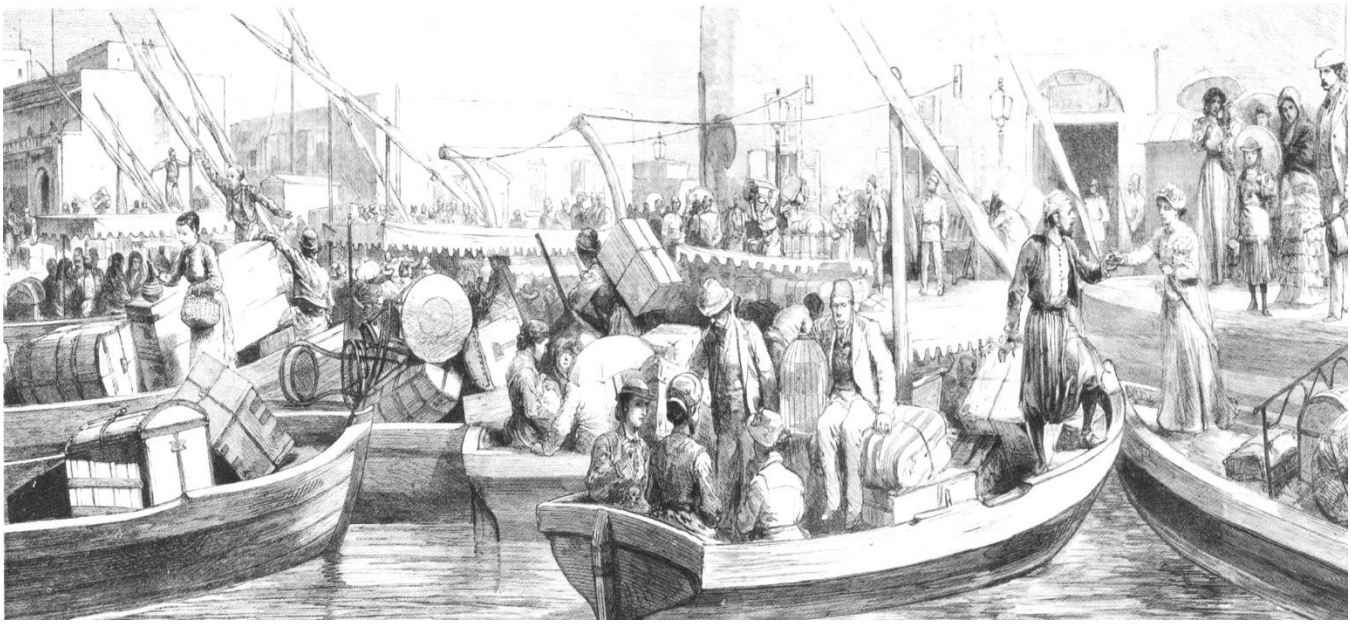

الرحيل من الإسكندرية،"جريدة الجرافيك"،8 يوليو 1882

من الاسكندرية كتب الفنان المراسل لجريدة "The Graphic" : "منذ وقوع المذبحة، أصيبت المئات من العائلات بحالة من الذعر، امتلأت الشوارع بالأمتعة والمنقولات في أثناء الصراع للوصول إلى المرفأ. كل المركبات المتاحة تم إشغالها، وتدفق تيار من جميع الجنسيات نحو الميناء من الرجال والنساء والأطفال، منذ الصباح الباكر وإلى الليل، حيث إندفعوا نحو السفن، وتقاضى البحارة رسوماً مبتزة لنقل الهاربين إلى زوارق الهروب، حيث يمكن لهؤلاء الأجانب أن يكونوا لفترة من الوقت تحت حماية الأساطيل المشتركة، حتى تنقلهم البواخر المستأجرة المدرعة إلى مكان آمن. ليس من السهل نسيان المنظر في مكتب الجمرك، حيث أتممت رسمتي شكل (3). القوارب، وقد نقلت كبار السن من الرجال والنساء والأطفال الصغار والطيور والكلاب والقطط، الأثاث والأغراض المنزلية بجميع أنواعها وأشكالها. فإحدى العائلات تعتز بمغسلة، وأخرى بساعة قديمة. كراسي وطاولات وشراشف وزجاجات مياه، وجميعها مكدس بتنافر على متن أغلب القوارب. وبدا أن الهاربين، رغم أن العديد منهم قد دمروا كلياً، إلا أنهم بمجرد دفعهم في البحر قد شعروا بارتياح كبير، بل وببهجة، على الرغم من أنهم كانوا لا يعرفون إلى أين هم ذاهبون أو أين سيضعون رؤوسهم. مشهد بديع يصور الأجانب الهاربين من مدينة الاسكندرية على قوارب صغيرة لتقلهم لسفن الأساطيل المختلفة الراسية على ساحل الاسكندرية في انتظارهم. الإضاءة علوية تظهر وقت الهروب وهو وقت وجود الشمس فوق رؤوسهم في منصف النهار، والمنظر بانورامي آفقي يبين المسهد بمساحة عريضة بطول الميناء التي امتلأت بالهاربين وأمتعتهم المكدسة. تغلب الفوضى والمفاجأة على المشهد.

في 11 صباح يوم الثلاثاء، وبعد عدة أسابيع من الأحداث المثيرة، توقفت محاولات الوصول إلى تسوية سلمية للمشكلة المصرية بسبب الصراع الرهيب بين الحصون والمدفعية في الإسكندرية، تحت قيادة عرابي باشا، والبحرية البريطانية بقيادة الأدميرال السير "بوشامب سيمور"(1) Beauchamp Seymour، بسبب إصرار المصريين على مواصلة استعداداتهم الحربية الدفاعية والهجومية. وكان الأدميرال قد اكتشف يوم الأحد أن هناك مدفعين جديدين تم تركيبهما على الجانب الغربي من مدخل الميناء في الإسكندرية، حيث قام بإعداد إعلان ليتم نشره، متهماً السلطات المصرية بخرق المعاهدة، ويطالب بتسليم التحصينات في غضون اثنتي عشرة ساعة. إذا لم يتم الامتثال لهذا، فسيطلق النار عليهم بعد 24 ساعة أخرى. أرسل القنصل العام البريطاني إخطاراً إلى القنصل العام الآخر ينصحهم بسحب جميع رعاياهم من البلدة خلال أربع وعشرين ساعة. وقام السيد "كارترايت"(2) Cartwright والسير "أوكلاند كولفين"(3) Auckland Colvin بزيارة الخديوي وعرضا عليه تأمين سلامته على متن سفينة حربية. لكنه رفض مغادرة المدينة. وأرسل القنصل الفرنسي العام إلى القاهرة وأمر جميع الفرنسيين بالمغادرة، حيث كانت الأعمال القتالية متوقعة كل ساعة. أدى هذا إلى حالة من الذعر في مدينة الإسكندرية. لم يكن هناك أي علامة على الاستسلام من جانب عرابي باشا، ولذلك بدأ القصف عند الساعة السابعة صباح يوم الثلاثاء. شكل (4) طباعة من قالب خشبي محفور، عرضي

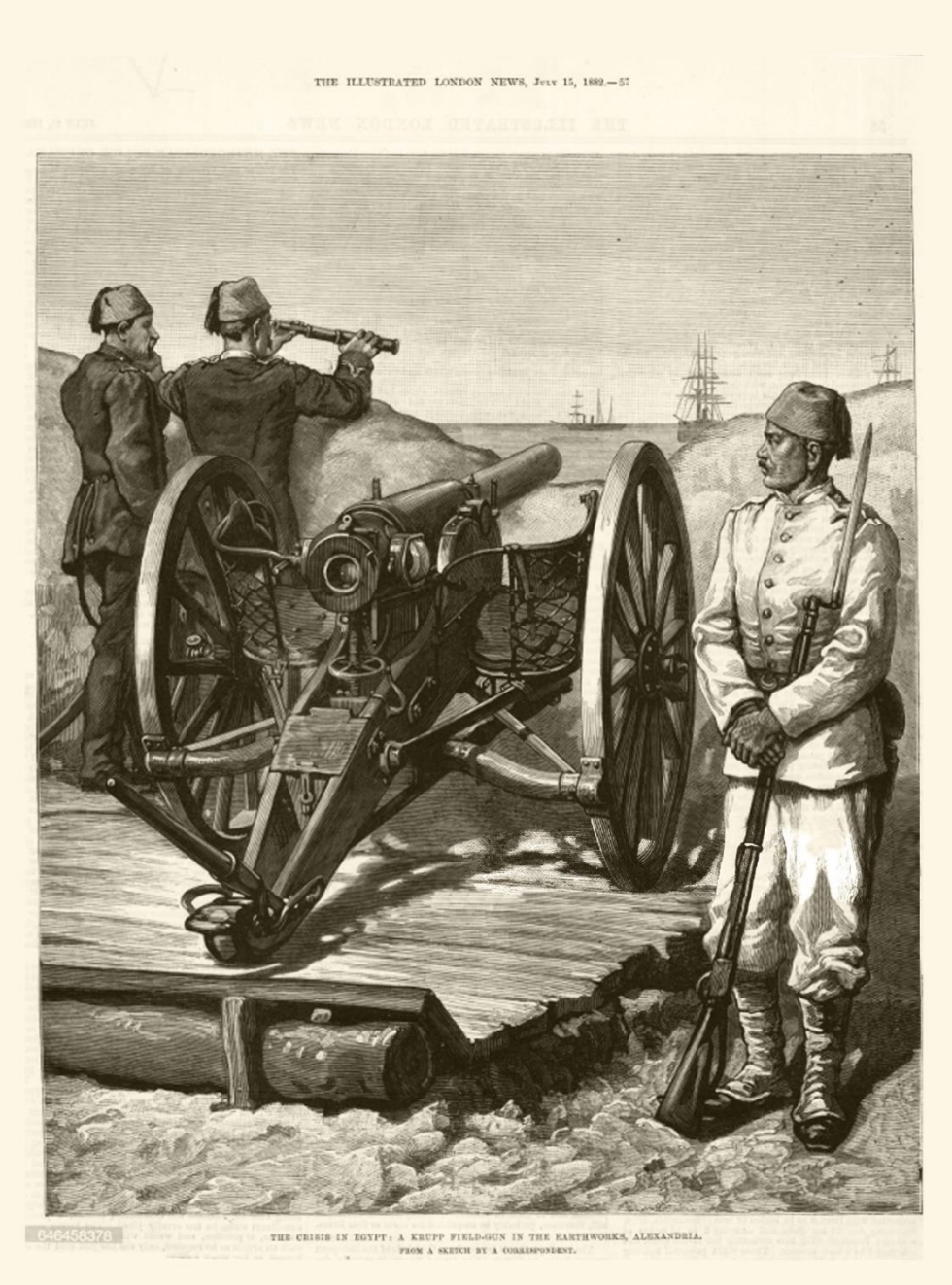

المقطع، من رسم يظهر فيه أحد حصون الاسكندرية بتجهيزاته من رجال الجيش المصري بزيهم الرسمي، وقد بدا مجعدا ويظهر مدفع واحد في المشهد، وأحد الجنود يقف ممسكا ببندقيته في سكون، وآخران يراقبان سفن الأساطيل المشتركة وقد ظهرت بعيدا في الأفق. ونرى الرسام الانجليزي قد رسمهم في وضع يغلب عليه التراخي وثبوط الهمة، وهي النظرة المراد تصديرها للقارئ الانجليزي والعالم.

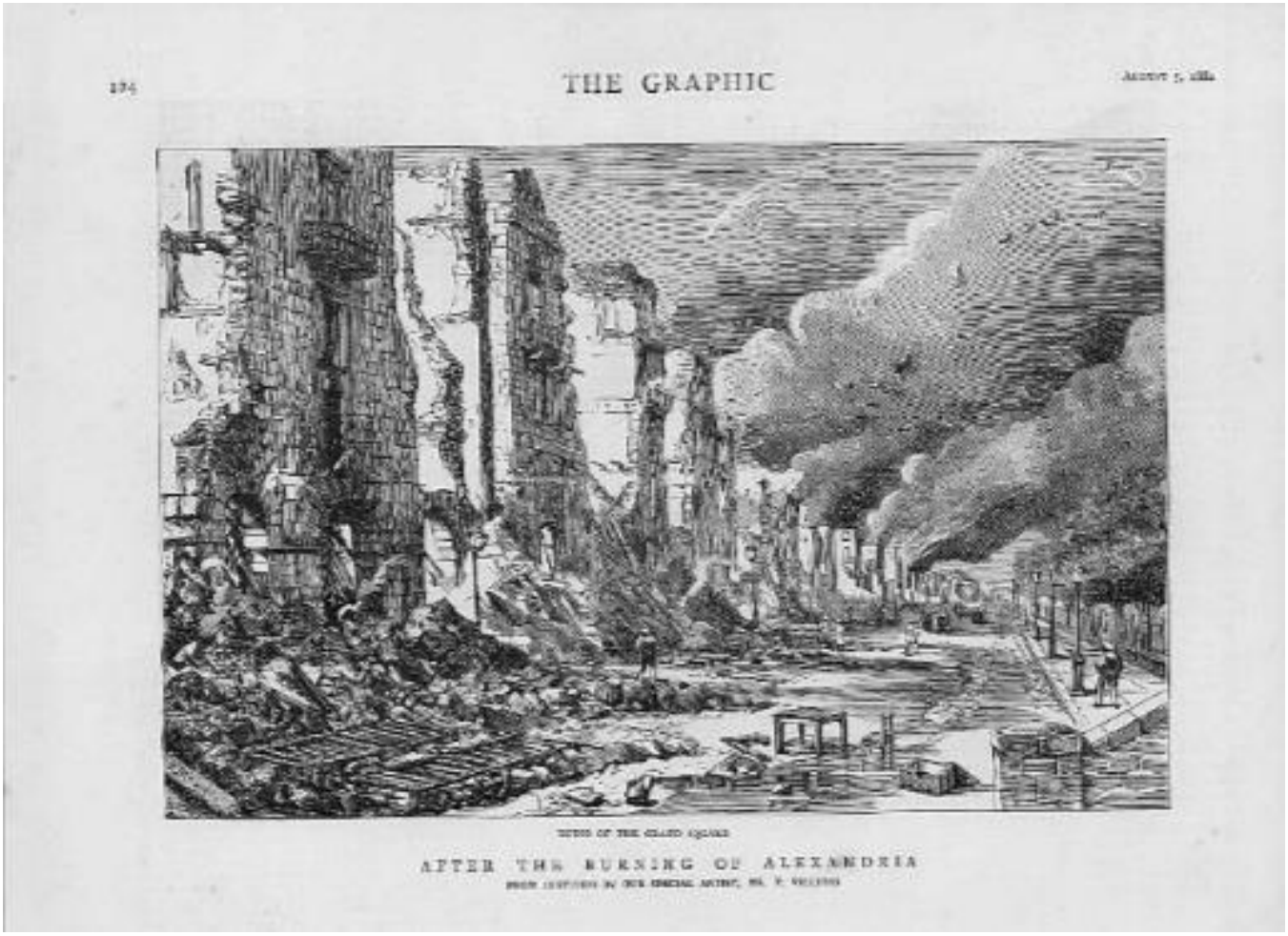

حريق الاسكندرية

الحرق والنهب الذي أعقب القصف أربك الحياة الاجتماعية اليومية للمدينة تماما. دمرت الأعمال بشكل كامل، اصبحت الطبقة العاملة بلا عمل، تم قطع إمدادات الغذاء التي تعيش عليها المدينة كل يوم بشكل أساسي، شكل (6). يقول مراسل صحيفة "التايمز": "في الوسط، وقف تمثال كبير لـ"محمد علي" على متن جواد محاط بكتلة كبيرة من الدخان، خلفه استطعت رؤية مبنى المحكمة، بخلاف ذلك لا أرى شيئاً. على الجانبين كان هناك خط واحد طويل من النار. في كل لحظة سقط منزل محدثا صوت مثل المدافع التي سمعتها منذ بضعة أيام، فناننا السيد "ڤيلرز" الذي زار الساحة مساء الجمعة بعد القصف يصفها بأنها "كتلة واسعة من النار المتوهجة، شكل (7). ضجيج تحطم الجدران المتساقطة، وصوت طقطقة النيران وهي تحيط وتلتهم المنزل تلو الآخر أضافت غرابة إلى المشهد". هذا الاستفزاز قاد "جلادستون" إلى الاعتقاد بأن عرابي كان مستعصيًا وخطيرًا، لذا أمر الجنرال "ولسلي"(1) Wolseley بالبدء في الأعمال العدائية في الثاني من يوليو. بحلول سبتمبر، تم القبض على عرابي، وتم إخضاع قواته وأنصاره، وتم احتلال مصر. الأشكال (**5**)، و (**6**)، و (**7**) هي طباعة من قوالب خشبية محفورة من رسم للفنان المتميز فريدريك ڤيللرز الذي عمل رساماً لعدد من الصحف البريطانية وعلى رأسها "ذا جرافيك"، صور مشاهد لمدينة الاسكندرية أثناء وبعد الحريق الكبير الذي اندلع فيها راصدا لحجم الخراب والدمار الذي لحق بالمدينة الجميلة، بمنازلها المهدمة جراء الحريق وألسنة اللهب التي ظلت مشتعلة لعدة أيام وسحب الدخان الكثيفة المتصاعدة في الجو نهاراً حاملة معها رماد أوراق متطايرة، وأكوام من الأنقاض وقد بدت الاسكندرية كمدينة للأشباح ليلا وقد أضاءتها ألسنة اللهب.

أما السكان الناجون من الحريق فقد ساروا في طرقات المدينة يحملون ما استطاعوا أن ينقذوا من متاع قليل حملته النساء فوق رؤوسهن والبعض جلسن في الطرقات وسط جموع المشردين

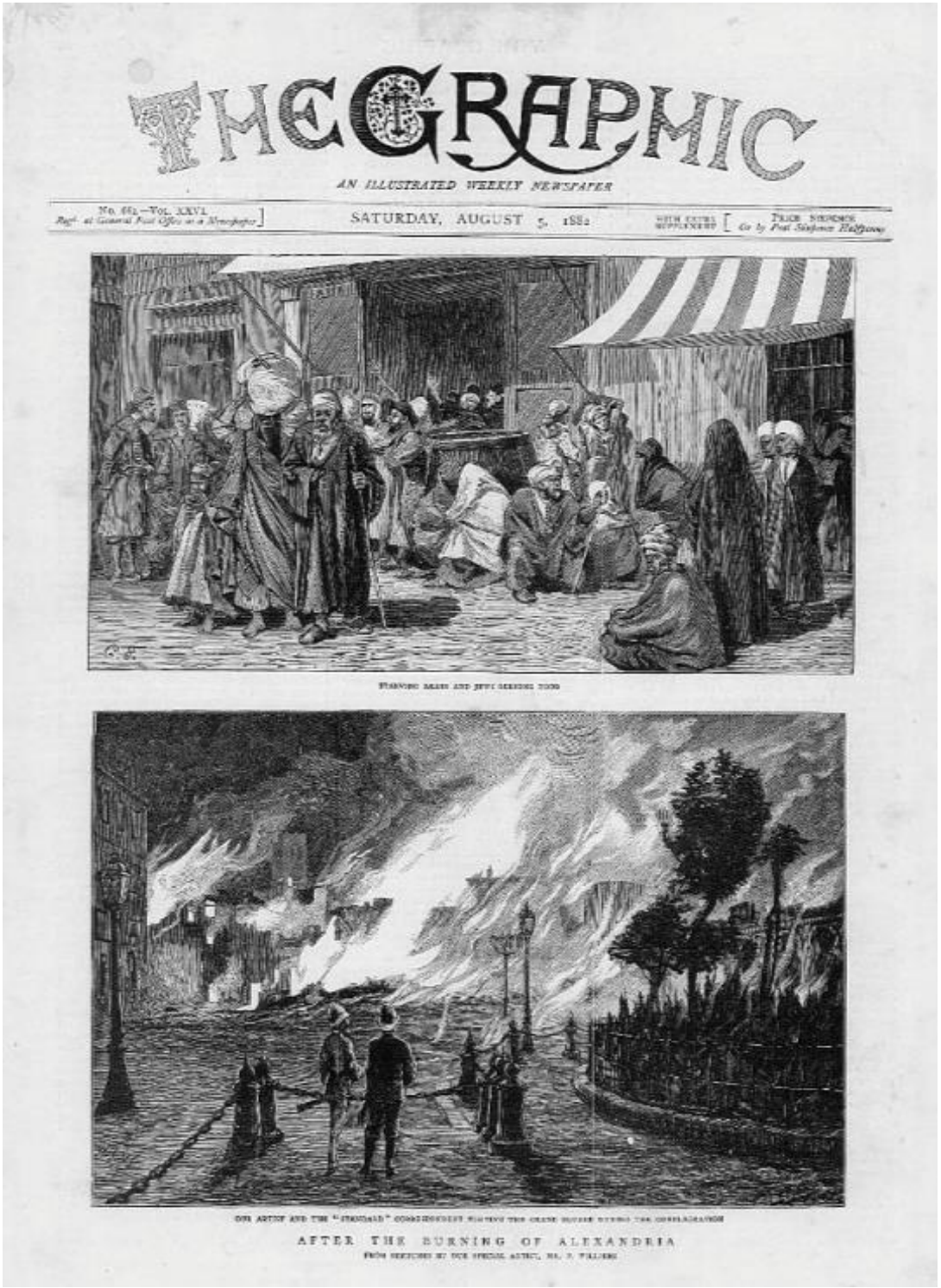
THE GRAPHIC

AN ILLUSTRATED WEEKLY NEWSPAPER

No. 661.—Vol. XXVI. SATURDAY, AUGUST 5, 1882

AFTER THE BURNING OF ALEXANDRIA

الباحثين عن الطعام عند أصحاب المتاجر شكل (6). مشاهد تنقل صور حقيقية لطبيعة الملابس وواجهات المباني والحوانيت بل وأشكال أعمدة الإنارة والأشجار الموجودة في تلك الفترة.

من **1881** - **1882** تتضح الطريقة التصويرية السلبية لعرابي التي رسمت عبر الصحافة الانجليزية واستخدمها المشروع الاستعماري، فقد شاعت نظرة عامة عن "عرابي" في التغطية الصحفية خلال النصف الأول من **1882** بوصفة بالشرقي المستبد أو الطاغية الماكر المتعطش للسلطة، الشكل (**8**)، المجرد من العاطفة وغير المكترث بأهلة وعشيرته.

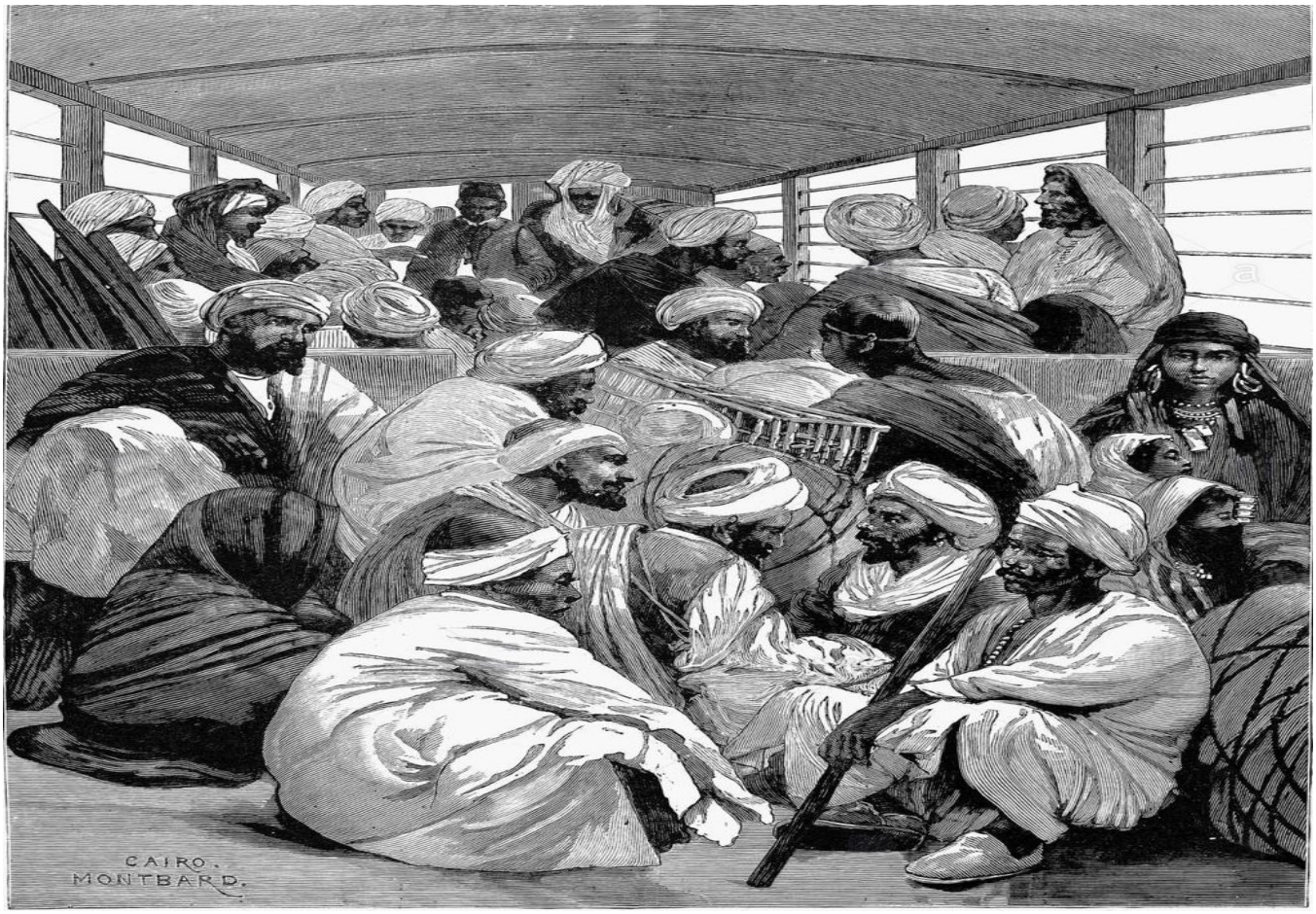

كان الرسم الأول من عربة السكك الحديدية من الدرجة الثالثة، مزدحمة الممرات، مليئة بالركاب والوقوف في ثوب عربي تقليدي (الشكل 9). وصف الرسام "ج. مونبارد" (G. Montbard كيف قام بالإعداد الأولي للرسم. خلال توقف سريع بين الإسكندرية والقاهرة، خرج من عربة الدرجة الأولى وشق طريقه أسفل الرصيف إلى عربات الدرجة الثالثة رغم اعتراض مدير المحطة، وبمجرد وصوله، بدأ "مونبارد" في البحث عن الصور التي تعبرعن مصر المتخيلة التي أحضرها معه. واستمر"مونبارد" خلال بقية إقامته يصور مصر بطرق تعكس وجهة نظر بريطانية استعمارية حول تلك المنطقة على مدى الأشهر الستة التالية، صورت سلسلة "ذا إيلوستريتد لندن نيوز" الفلوكة على النيل، الآثار الإسلامية المتداعية في القاهرة، والصور الشخصية من الطبقات الدنيا من المصريين، وأحياناً العاملين في الحرف التقليدية أو في الحقول. ويظهر الإسلام فقط في شكل دعاة الشوارع ودراويش المولوية. نادراً ما يتم تصوير المصريين في أثواب على النمط الغربي في البيئات الحديثة (على النمط الغربي أو العربي) أو في مباني الأنشطة التجارية أو التعليمية. هذه الرسوم المنفذة بشكل جميل تصور مصر في معارضة مطلقة للتصور البريطاني عن الذات. تُصوَّر مصر على أنها تثمن الكسل بدلاً من الصناعة، والتقاعس عن العمل من العمل، والتخلف في مكان الحداثة، والتحلل بدلا من النظافة، والجهل والخرافات في مكان الدين.

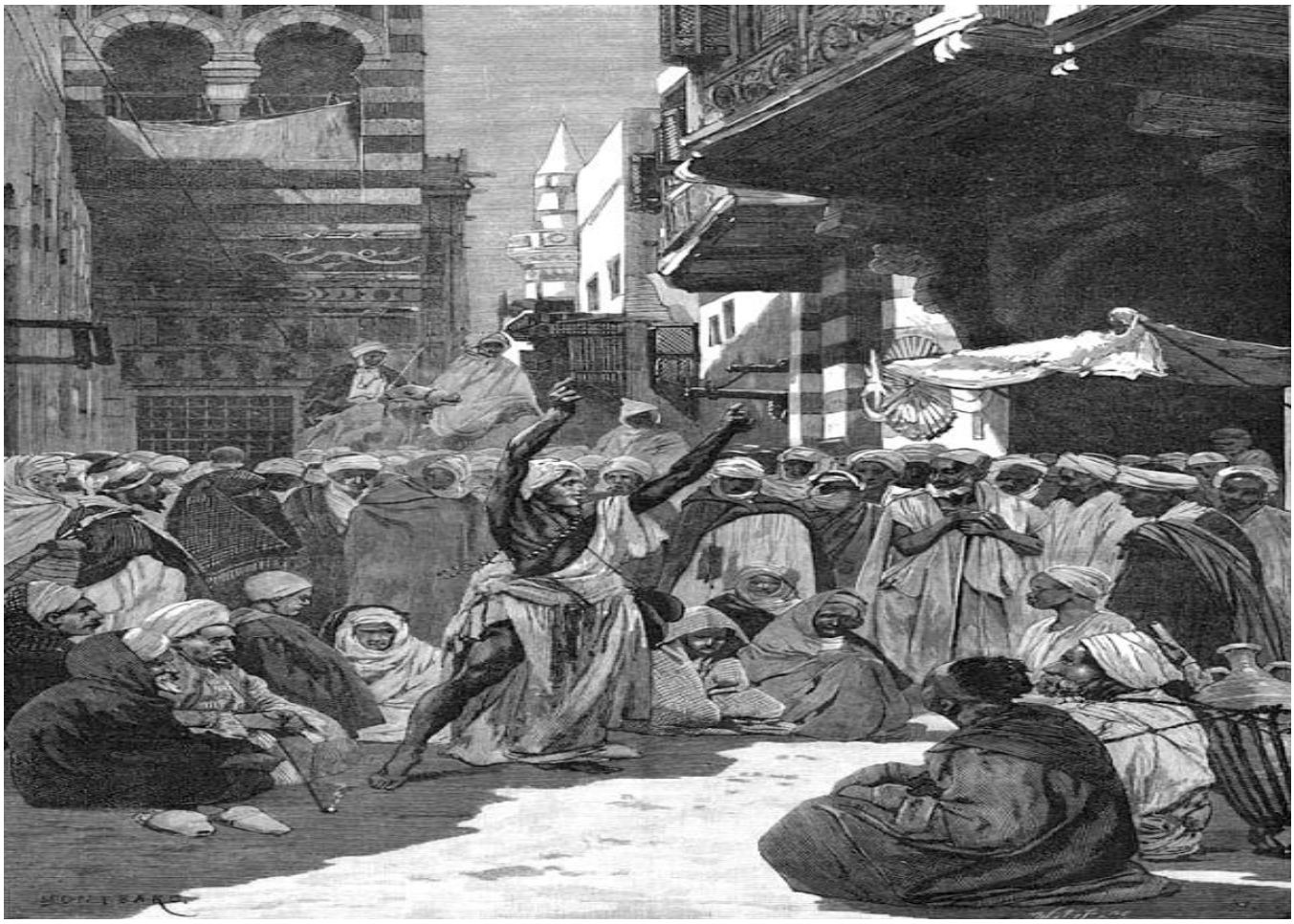

ويظهر الإسلام فقط في شكل دعاة الشوارع ودراويش المولوية. نادراً ما يتم تصوير المصريين في أثواب على النمط الغربي في البيئات الحديثة (على النمط الغربي أو العربي) أو في مباني الأنشطة التجارية أو التعليمية. هذه الرسوم المنفذة بشكل جميل تصور مصر في معارضة مطلقة للتصور البريطاني عن الذات. تُصوَّر مصر على أنها تثمن الكسل بدلاً من الصناعة، والتقاعس عن العمل من العمل، والتخلف في مكان الحداثة، والتحلل بدلا من النظافة، والجهل والخرافات في مكان الدين. وفي عدد 10 يونيو المصور، ذكرت صحيفة "إيلوستريتد لندن نيوز" أن عرابي كان يميل نحو "التطرف الإسلامي" على صفحتين، في صفحات لاحقة، يجد القراء رسم صفحة كاملة عن حشد يحيط بداعية ديني بالشارع، نصف عاري أمام مسجد السيدة زينب في القاهرة رافعاً ذراعيه (الشكل 10). وهكذا تم ربط حركه "عرابي" بالدين الشعبي في الشوارع وبقيادة دينية خرافية جاهلة وغير متحضرة. أي أن معظم هذه الرسوم استخدمت كدعاية سيئة لعرابي ومصر. صورت هذه الرسوم للقراء أن "عرابي" هو نوع القائد الناتج من هذا المجتمع.

توضح هذه الأمثلة أن احتجاجات "عرابي" لا يمكن أن تكون منعزلة، كان للنص والصورة أهمية متساوية بالنسبة لعملية رسم تصور حول "عرابي" صالحة للاستهلاك البريطاني. في قمة الأزمة، نشرت "بانش" رسم كارتوني بعنوان "أسد في الطريق" (الشكل **13**)! "أهرام صغيرة في الخلفية وأسد ضخم يقف على لفافة من الورق كتب عليها "قناة السويس" في الصفحة المقابلة، تصف قصيدة مختصرة كيف يمكن للأسد النائم المغذي جيداً أن يتحول بسرعة إلى الشراسة كنتيجة للاحتقار الفج من الرجال الصغار.

استسلم عرابي بعد هزيمة قواته في معركة التل الكبير وتمت محاكمته في **14** سبتمبر **1882** وحكم عليه بالإعدام ثم خففت العقوبة للنفي إلى جزيرة سيلان، وفي عام **1914**، عاد أحمد

عرابي إلى مصر بعد سنوات في المنفى وسرعان ما توفي بعد ذلك فقيرا بعد أن جُرِّد من كل شئ. لكن مع نهاية تواجد البريطانيين في مصر، أعيد تصويره كبطل وطني حقيقي. سميت محطة مترو باسمه، ويتم الاحتفاظ بمكان مولده كمتحف صغير.

المصادر

https://scholaruwindsor.ca/historypub/18
https://as.nyu.edu/content/nyu-as/as/faculty/robert-young.html
www.illustrationhistory.org
http://mideastcartoonhistory.com
www.alamy.com
www.goodreads.com
picclick.co.uk
www.britannica.com
https://collections.rmg.co.uk
www.alamy.com
www.mwme.eu/Essay-Bilder/Spoils_4.jpg